مجلة تراثية فصلية محكمة

٢

التراث

WWW.ATTAWEEL.COM

تصدر عن
دار الشؤون الثقافية العامة
- وزارة الثقافة والاعلام
الجمهورية العراقية

المجلد الثامن عشر
العدد الثاني
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٦ م

أسد الياس محمد

القصائد القدسيات

دراسة

عبد الجبار محمود السامرائي

بغداد ص . ب ٤٦٩

كانت القدس هي مركز الجاذبية الصليبية خلال الشوط الثالث من حلات الفرنج، ولهذا كانت الهدف الذي جمعوا له الجموع، وأقبلوا بخيلهم لغزوه، فاذا سقط هذا الهدف في يد العرب المسلمين كان معنى ذلك ان الحروب الصليبية لم تؤد الى غاية، ولم تصل الى الهدف المرسوم، وأن بقاء الفرنج في هذه الديار بقاء محدود الأمد.

ولما تطاول الأمد على امتلاك الصليبيين للقدس زهاء تسعين سنة، فقد خلق في النفوس استبعاد ان تعود الى اصحابها العرب المسلمين، فكان استرجاعها أمنية عدت في عداد المستحيل (١) لقد احتل الصليبيون القدس في ٧ حزيران سنة ١٠٩٩ م. بجيش قوامه سبعين ألفا فضربوا من حولها الحصار، ولم تستطع حاميتها المكونة من ألف جندي مصري أن تقاوم الحصار الذي دام ثمانية وثلاثين يوما فسقطت المدينة بيد الصليبيين في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الجمعة ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ م، فاقتحمتها جيوشهم وعلى رأسها عديد من امراء الاقطاع الاوربيين، في مقدمتهم (جود فري دربويون) أمير مقاطعة اللورين الفرنسية، والكونت (ندكر يد ريموند) امير مقاطعة تولوز، و (ريكاردوس) أمير سالارنوس، والكونت (فلاندرة وكبرمونت وجراد وبلدوين وسان جيل) وغيرهم كثيرون. دخل الصليبيون (القدس مدينة الانبياء والسلام. . . فصنعوا بها وبأهلها مالا يقرّه نبي من الانبياء ولا مؤمن بالسلام. . .)، فملأوا المدينة « دما وزيتا ودموعا » ولم يتركوا من سكانها أحدا. . . (٢) وفي الصورة القلمية التي رسمها (ميشو) عن فتح الفرنج بيت المقدس تقرأ وصفا دقيقا ومؤثرا لتلك المجزرة، يقول: (سرعان ما صارت المذبحة عامة، فذبح المسلمون في الطرقات وفي المنازل، ولم يعد في بيت المقدس ملجأ للمغلوبين، فبعض الذين فروا من الموت ألقوا بأنفسهم من فوق الاسوار، وآخرون جروا جماعات، يختبئون في القصور والابراج، وبخاصة المساجد. ولكنهم لم يستطيعوا أن يفرّوا خوفا من ان يتبعهم الصليبيون، فبعد ان صار هؤلاء سادة مسجد عمر، الذي دافع المسلمون عن انفسهم حينا فيه ـ وجددوا فيه المناظر المحزنة، فدخل المسجد المشاة والفرسان، واختلطوا بالمنهزمين، وفي وسط أشنع فوضاء كنت لا تسمع الا الأنين وصيحات الموت، لقد كان المنتصرون ـ يقصد الفرنج ـ يثيرون على اكوام من الجثث ليتبعوا من يحاول الفرار عبثا، وقال شاهد عيان:

ارتفعت الدماء الى ركب الخيل وأعنتها في الهيكل، وتحت ايوان المسجد، وكل الذين أبقى عليهم التعب من الذبح، او أسروا طمعاً في أن يفدوا انفسهم بفدية غالية، قتلهم الصليبيون. لقد أكرهوا على ان يلقوا أنفسهم من أعالي البروج والبيوت ويكونوا طعاماً للنيران، وكانوا يخرجونهم من الأقبية واعماق الارض، ويجرونهم في الميادين العامة، حيث يذبحونهم فوق اكداس الموتى، ولم تثنهم دموع النساء ولا صيحات الأطفال. لقد كانت المذبحة هائلة، وكانت الجثث مكدسة، لا

في القصور ولا في المساجد ولا في الشوارع فحسب، لكن، في أخفى الأماكن وأكثرها انفراداً، وهكذا جنون الانتقام والتعصب، ولم تنته المذبحة الا بعد اسبوع والمؤرخون الشرقيون واللاتين، متفقون على أن عدد القتلى بلغ سبعين الفاً، وبعدئذ أمر من بقي من المسلمين الذين لم ينجوا من القتل الا ليقعوا في استعباد مخوف ـ أن يدفنوا الاجسام المشوهة لأصدقائهم واخوانهم، فأخذوا ينقلون وهم يبكون، هذه الجثث خارج بيت المقدس، وساعدهم في ذلك بعض الصليبيين الذين وصلوا المدينة أخيراً، فلم يظفروا بكثير من الاسلاب، وأخذوا يبحثون عن بعض الغنائم بين الموتى)[6]

وكان من الطبيعي أن يستنجد العرب بعضهم بعض، يطلبون العون، ويسألون المساعدة، لرد هذا الخطر الصليبي الداهم، والعدو المنقض بكلّ ما أوتي من قوة، وأن يرسل بعض الملوك الى بعض رسائل، عسى أن تتكاتف القوى، وتتحد الجهود، لاستخلاص بيت المقدس من يد الغزاة. ورأى صاحب (النجوم الزاهرة) أن الفرنج بعد ان استولوا على بيت المقدس وأظهروا فيه ما أظهروا من ضروب الوحشية، وألوان القسوة والجبروت، خرج المستنفرون من دمشق، مع قاضيها، (زين الدين أبي سعد الهروي)، فوصلوا بغداد، وحضروا في الديوان، وقطعوا شعورهم، واستغاثوا، وبكوا، وقام القاضي في الديوان، وأورد كلاماً أبكى الحاضرين، وأنشأ القاضي الهروي قصيدة للابيوردي:

مزجنا دماءً بالدموع السواجم
فلم يبق منا عرضة للمراجم[7]
فيا بني الاسلام ان وراءكم
وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
أتهويمةً في ظلّ أمنٍ وغبطةٍ
وعيش كنوّار الخميلة ناعم؟
وكيف تنام العين ملء جفونها
على هفوات ايقظت كل نائم
واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم
ظهور المذاكي[8] أو بطون القشاعم[9]
تسومهم الروم الهوان وانتم
تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

ـ ومنها أيضاً:

أرى أمتي لا يشرعون الى العدى
رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون الثأر خوفا من الردى
ولا يحبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى
ويغضي على ذل كُماة الأعاجم؟

ـ ومنها أيضاً:

فليتهم اذ لم يذودوا حميةً
عن الدين ضنّوا غيرةً بالمحارم
وان زهدوا بالأجر اذ حمي الوغى
فهلا أتوه رغبةً في الغنائم

● وأمام هذا الخطر المدمر الذي ألمّ بالشرق وأحدق بالحضارة العربية الاسلامية استيقظت في الوطن العربي روح المقاومة، وأنبتت الأرض نبتاً ملائماً لذلك الخطر في النوع والكفاءة والأدوات فلقد كان الصليبيون جفاة لا يمتلكون سوى القدرة على سفك الدماء... فاستثارت صفاتهم هذه روح الفروسية في الشرق، وعلت هذه الظاهرة وتقدم اصحابها فتسلموا زمام الامور من العلماء والفلاسفة والحكماء طوال قرون العصور الوسطى، أي منذ أن قامت الدولة العربية في (الموصل) سنة ١١٢٧ م وحتى سقوط نظام المماليك في قلعة القاهرة على يد (محمد علي) سنة ١٩١١ م.

ولكن فروسية المسلمين لم تكن مجرد شجاعة ومهارة في القتل والسلب والنهب كما هي عند الصليبيين، بل كانت فروسية عربية ذات سمات وشمائل تنبع من القيم الروحية والمشاعر الانسانية التي صنعتها حضارة الاسلام، فكانت لهذه الفروسية العربية عشر خصال يتربى عليها الفرسان المحاربون ويتخلقون بها: (التقوى، الشجاعة، رقة الشمائل، الصبر، مراعاة الجوار، المروءة، الكرم، حسن الضيافة، مساعدة النساء والأرامل، والوفاء بالعهود)... وبهذا النوع من الفرسان قرر الوطن العربي ان يتصدى للموجة الصليبية، تلك التي مثلها « فرسان » الاقطاع الأوربي (٧)، وبعد أن استقرت الأمور لصلاح الدين الايوبي بمصر، كانت عينه على جنوب فلسطين، فهناك الطريق الذي يجب ان يفتح كي يتم اتصال مصر بالمشرق العربي، وكي تتحقق الخطوة الكبيرة في الاستراتيجية العربية باحكام الحصار حول الكيان الصليبي من الشمال والشرق والغرب والجنوب[10] أي على: ضرورة الالتفاف من حول الكيانات الصليبية حتى لا يصبح أمام الصليبيين منفذ سوى البحر الأبيض المتوسط، الذي جاءوا عبره من اوربا، ولا بد من

الاحاطة بهم والضغط عليهم حتى يعودوا عبره الى البلاد التي بدأوا منها هذا العدوان الصليبي الكبير[9] وحتى يحقق صلاح الدين هذا الهدف قام بأربع حملات في سنة ٥٦٨ وسنة ٥٧٩ وسنة ٥٨٠ وسنة ٥٨٣ هـ[10] وعندما لاحت في الأفق بوادر الاستقرار في الوضع الداخلي بمصر، وتلك الوحدة في الجبهة القومية العربية، لم يكن أمام صلاح الدين الا أن يتوجه بقلبه وعقله وجيشه لقتال الصليبيين في فلسطين[11] وشهدت أعوام ٥٧٥ ـ ٥٧٨ هـ (١١٧٩ ـ ١١٨٢ م) عدة معارك ومناوشات قام بها صلاح الدين ضد القوات الصليبية على ارض فلسطين. . فهدم حصن الصليبيين عند « مخاضة الأحزان ». بالقرب من « باتياس » واستطاع جيشه أن يقلق راحة العدو ويغنم منه في « بعلبك » و « بيروت » و « بيسان » و « جنين » و « اللجون » و « الغور ». . . بل لقد تعرض مع جيشه لهزيمة كادت تودي به في سنة ١١٨٢ م عندما دخل ضد الصليبيين معركة في « الرملة ». . وكانت هذه الكسرة (وهناً عظيماً جبره الله بوقعة حطين). فلقد قضى صلاح الدين بعد هذه النكسة خمس سنوات في الاستعداد للقاء الكبير الذي حدث عند « طبرية » في سنة ١١٨٧ م، وهو اللقاء الذي أباد فيه الجيش الصليبي في « حطين » ففتح الباب على مصراعيه لتحرير القدس[12]

ولم ينتظر صلاح الدين حتى يستفيق الفرنج من كسرتهم في حطين، بل مضى يتبع فلولهم المنهزمة، حتى اذا حرر الأماكن المحيطة بالقدس، واجتمعت اليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل، مضى الى القدس فحررها ظهر يوم الجمعة ٢ تشرين الاول ١١٨٧ (٢٧ رجب ٥٨٣ هـ). وكان لهذا التحرير رنة فرح كبيرة في صدر العالم العربي والاسلامي كله، وظفرت هذه المعركة الخالدة بنصيب موفور من الشعر لم تظفر به معركة منذ شبّت الحروب الصليبية، الى أن وضعت الحرب أوزارها، ذلك أن طرد الفرنج من القدس كان هدف (صلاح الدين) الأول، لأنه متى طردهم من البلاد التي أتوا من وراء البحار لامتلاكها، فقد هانت عليه بقية الامارات اللاتينية[13]

وبعد ان تحررت القدس ظفر هذا الحدث العظيم بتقدير جليل لم يظفر به نصر سواه، في تاريخ الحروب الطويلة، فقد كان يوم تحرير القدس يوافق ذكرى الاسراء بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام بمكة الى المسجد الأقصى بالقدس. وقد تم في هذا التاريخ التوقيع على نسختي المعاهدة الخاصة باستسلام الصليبيين، ودخل العرب المسلمون المدينة المقدسة، في لحظات تاريخية حملت من مشاعر القدسية وشحنات التسامي ما عجزت عن وصفه أقلام المؤرخين والأدباء الذين شهدوا هذا الحدث الكبير. وفي الوقت الذي انصرف فيه اللاتين الصليبيون بجمع المال والمتاع استعداداً للرحيل، وأغلقوا أبواب البيوت على انفسهم، دخل العرب ساحة المسجد الأقصى ليعيدوا الى المقدسات قدسيتها[14] ولم يكن صلاح الدين عظيماً كعظمته في هذا الموقف، يوم تحرير القدس فقد أمر بانتشار الأمراء والجنود ليمنعوا اي اعتداء أو اهانة تقع لأي مسيحي، وقد توجه اليه الالاف من النساء وبنات الفرسان الذين أسروا أو قتلوا في تلك المعارك وخدمهم بسالته الرحمة، فأمر باطلاق سراح ازواجهن واخواتهن ومنح بعضهن هبات مالية مناسبة[15] وفي خارج المدينة المقدسة، جلس البطل صلاح الدين في خيمته، في تواضع ليس له مثيل، يتلقى التهاني، ويلقى الأكابر والأمراء، ومن حوله جمهرة غفيرة من العلماء والفقهاء الذين يمثلون مختلف المدن والأقاليم العربية، والذين كانوا قد توافدوا على المعسكر منذ أن علموا بتوجه الجيش لفتح القدس الشريف[16] ولقد نظم الشعراء في يوم تحرير القدس قصائد عصماء عرفت فيما بعد بـ (القدسيات). وقد تنوعت الاشادة في شعر القدسيات بهذه المعركة، فحيناً يصفها، وحيناً يتحدث عن نتائجها، وحيناً يصور بهجة العرب والمسلمين بها، وحزن الفرنج على خسارتها. لقد تغنى الشعراء، وأطالوا وامتلأ العالم العربي والاسلامي كله بنغمات من الطرب والبهجة، وتدفق الشعر فياضاً قوياً، يصف ذلك كله[17] وهل ثمة يوم أعظم من يوم تحرير القدس من براثن الصليبيين؟

● وكان أكثر من نظم الشعر في يوم القدس (العماد الاصفهاني)، وكان يصاحب صلاح الدين في المعركة. ومما هنأ به البطل الكبير قصيدة منها:

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا
وأشرف من اضحى وأكرم من أمسى
وقيل لنا في الأرض سبعة أبحر
ولسنا نرى الا أنامله الخمسا
فلا عدمت أيامنا منه مشرقاً
ينير بما يولي لياليَنا الدمسا
جنودك أملاك السماء وظنهم
عداتك جن الأرض في الفتك لا الأنسا
فلا يستحق القدس غيرك في الورى
فأنت الذي من دونهم فتح القدسا

ومن قبل فتح القدس كنت مقدساً
فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا
وقد شاع في الآفاق عنك بشارة (١٨)
بأن أذان القدس قد بطل النقسا

● وكان من الشعراء الذين وصلوا الى مخيم صلاح لمدحه وتهنئته بهذا اليوم العظيم، شاعر مصري يدعى (محمد ابن اسعد ابن علي بن معمر الجلبي) المعروف بـ (الجواني المصري) وكان نقيب الأشراف بالديار المصرية، فأنشده قصيدة منها:

أترى منامًا ما بعيني أبصر
القدس يفتح والفرنجة تكسر
وقيامة قمت من الرجس الذي
بزواله وزواله يتطهر
ومليكهم في القيد مصفود ولم
يُرَ قبل ذاك لهم مليك يُؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي
وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
من كان هذا فتحه لمحمد
ماذا يُقال له، وماذا يذكر؟
يا يوسف الصدّيق أنت لفتحها
فاروقها عمر الامام الأطهر
نثر ونظم طعنه وضرابه
فالرمح ينظم والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع، حيث الـ
عيون خواشع، حيث الجباه تعفّر
غاراته جمع فان خطبت له
فيها السيوف فكل هام منبر
اذ لا ترى الا ظل بنابك
تحذى نعالاً أو دماء تهدر
وصوافناً تختار أن تطأ الثرى
فيصيدها عنه ظل وسنوّر
تمشي على جثث العدا عرجاً ولا
عرج بها لكنها تتعثر[١٩]

ـ ان مطلع هذه القصيدة يعبر عن الفرحة بالنصر في الوقعة، وتصور القصيدة أن آثار بيت المقدس تطهرت، وخاصة كنيسة القيامة بالقدس من رجس المحتلين، وان آثاره كذلك، أن غدا ملك الصليبيين في القيد، وان من آثاره هذا العدد الذي لا حصر له من قتل الغزاة، تمشي على جثثهم الجياد عرجاً وما بها من عرج[٢٠]

ـ وتدل هذه القصيدة على ان العرب لم يكونوا يستهينون بأمر الفرنج وملوكهم، وانّما كانوا يرون الغلبة عليهم محتاجة الى جهد جهيد، ويرون ملوكهم أشداء أقوياء، ولهذا انصرف الشعر الى تمجيد صلاح الدين تمجيداً رفعه الى درجة أنه يشبه بالخلفاء الراشدين[٢١]

● وأتى الى صلاح الدين شاعر آخر هو (شهاب الدين فتيان الشاغوري) فهنّاه بقوله:

رب الملاحم لم يؤرخ مثلها الـ
علماء قدماً في قديم الأعصر
خلعت عليه خلعة الملك التي
زيدت بهاراً بالطراز الأخضر[٢٢]
لم لم تدن شوس الملوك له وقد
ملك الصواحل في ثلاثة أشهر
واستنقذ البيت المقدس عنوة
من كل ذي نجس بكل مطهر
ورأيتهم يوم التقى الجمعان
باليت المقدس هول يوم المحشر
ورددت دين الله بعد قطوبه
بالمجد الأقصى بوجه مسفر
واعدت ما أبداه قبلك فاتحاً
عمر فأنت شريكه في المتجر
حتى جمعت لمعشر الاسلام بين
الصخرة العظمى وبين المعشر[٢٣]

ـ وهذه الأبيات الأخيرة زاخرة بالمعاني الدينية العزيزة على نفوس المسلمين. وأما (الطراز الأخضر) الذي كثر ذكره في اشعار الشعراء، فاشارة الى تنبؤ او حلم من احلام المسلمين، على رواية، وفيه ان شيخاً من شيوخهم رأى قبل يوم الفتح بعشر سنين ـ على رواية ـ واثنتين وخمسين سنة، على رواية أخرى، كأن انساناً ذا جهامة وقف على حائط بجامع دمشق وهو يقول:

ملك الصياصي والصواصي ناصر
لدينه بعد اياسه ان يقصرا
وسيفتح البيت المقدس بعدما
يطوى الطراز له ويقتل قيصرا[٢٤]

● وقدم على صلاح الدين شاعر يقال له (الرشيد بن بدر النابلسي) فهنأه بيوم القدس في قصيدة منها:

هـذا الـذي كـانـت الآمـال تـنـتـظر
فـلـيـوف لله أقـوام بـمـا نـذروا
بمثـل ذا الفـتـح لا والله مـا حـكـيـت
في سـالـف الـدهـر أخـبـار ولا سـيـر
الآن قـرّت جـنـوب في مـضـاجـعـهـا
ونـام من لم يـزل حلفـاً لـه الـسـهـر
يابهجة القـدس اذ أضحى به علم الا
سـلام من بعـد طي وهـو منـتـشـر
« الله اكـبـر » صـوت تـقـشـعـر لـه
شـمّ الـذرا وتـكـاد الأرض تـنـفـطر
يـا مالـك الأرض مهدهـا فـما أحـد
سـواك من قـائـم لـلـمـهـد يـنـتـظر
مـا اخضر هـذا الـطراز الـساحلي ثرى
الا لـتـعـلو بـه اعـلامـك الـصـفـر[22]
أضحى بنو الأصفر الا نكاس موعظة
فـيـهـا لأعـدائـك الآيـات والـنـذر
يغنيك اجمال قـولي عن مفـصـله
في لفـظة البحـر معنى تحته الـدرر[23]

● وأما الشاعر المعروف بـ (أبي الحسن علي ابن محمد الساعاتي) شاعر مصر والشام في زمانه، فقد نظم في يوم القدس قصيدة منها

ـ أعيـا وقـد عـايتم الآيـة الـعـظمى
لآيـة حـال نـدخـر الـنـثر والـنـظما؟
وقد شاع فتح القدس في كـل منطق
وشـاع الى أن أسـمـع الأصـل الـصـمـا
حبـا (مكـة) الحـسـنى وثنى بيثـرب
وأطـرب ذيّـاك الضـريـح ومـا ضـمّا
فليت فتى الخـطاب شـاهـد فتحهـا
فيشهـد أن السيف من يـوسف أصـمى
ومـا كـان الا الـداء أعـيـا دواؤه
وغـير الحـسـام العضب لا يحسن الحـسـما
وأصـبـح ثغر الـدين جـذلان بـاسـماً
وألـسـنـة الأغـمـاد تـوسـعـه لـثـما
سلوا الساحل المخشي عن سطواتـه
فـما كان الا سـاحلاً صـادف اليما[24]

● وأتى العماد الاصفهاني في كتابه (البرق الشامي) على ذكر شاعر يقال لـه (الحكم ابو الفضـل الجلياني) قـال ان له قدسيات طوالاً، وقف العماد على بعضها، ونقل الينا جزءاً منها. وأما القصيدة الفتحية الناصرية التي هنأ بها (الجلياني) الناصر صلاح الدين بيوم تحرير القدس فأولها:

في بـاطن الغيب مـالا تـدرك الـفكـر
فـذو البصـيـرة في الأحـداث يعـتـبـر
مـالي أرى مـلـك الافـرنـج في قـفص
اين القـواضـب والعـسـّالـة الـسـمـر؟
والاسـبـتـار[25] الى الـداويـة[26] التـامـوا
كـأنهم سـد يـأجـوج اذا اشـتـجـروا
يـاوقفـة التـل[27] مـا ابقيت من عجب
جحـافـل لم يفـت في جـمـعـهـا بـشـر
ويا ضحى السبت[28] ماللقوم قد سبتوا
تهـوّدوا أم بكـاس الـطعن قـد سكـروا
حـطوا بحـطين ملكـاً كـافيـاً عجبـاً
في سـاعـة زال ذاك الـمـلك والـقـدر؟
أهـوى اليهم صـلاح الـدين مفـتـرسـاً
وهـو الغضنفر أعـدى ظفـره الـظفـر
وعـايـن الـملك الابـرنس في دمـه
فـمـات حـيّـا وهـو يـمـتـذر
رأى مـليـكـاً مـلوك الأرض تـتـبـعـه
والنجم يخـدمـه والشمس والقـمـر
هـذا المليـك الـذي بشـرى النبي بـه
في فتنـة البغي لـلاسـلام ينـتـصـر
أنـى مـلاحم ذي القرنـين واعـتـرفت
لـه الـرواة بـمـا لم يـنـمـه أثـر
أعـين أسكـنـدر بـالخضـر وهـو لـه
عـون من الله يـسـتـغني بـه الخضـر
وصنـع ذي العـرش ابـداع بـلا سبب
فـلا تقـل: كيف هـذا الحادث الخـطر؟
بيـنـا سـبـايـاه تجـلى في دمشـق اذا
ملك الفـرنـج مـع الأتـراك محـتـجـر
ازاءه زعـمـاء الـسـاحـلين مـعـاً
مصفـدين بحبـل القـهـر قـد أسـروا
يـتلوهـم (صلبـوت) سيق منـتكـسـاً
وحـولـه كـل قـسـيس لـه زبـر

يسبي فرنجة من أقطارها وله
مع المجوس حروب قدمها سعر
وبعض ابنائه بالقدس منتدب
وبعضهم (رومة) الكبرى له وطر
برابة تخرق الأرض الكبيرة في
جمع تقول له الأجسام: لاوزر[٣٢]

● ويذكر ان الشعراء الذين تحدثوا عن معركة بيت المقدس التي دارت رحاها بعد معركة حطين خصصوا جزءاً من قصائدهم للحديث عن معركة حطين، تاج معارك صلاح الدين، فقد نظروا اليها على أنها مقدمة لهذا الفتح المجيد. ومن ذلك قصيدة لفخر الكتّاب (الحسن الجويني) من أهل بغداد منها:

جند السماء لهذا الملك أعوان
من شك فيهم فهذا الفتح برهان
مق رأى الناس ما نحكيه من زمن
وقد مضت قبل ازمان وأزمان
هذي الفتوح فتوح الأنبياء، وما
له سوى الشكر، بالافعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيّد في يده
صيداً، وما ضعفوا يوماً، وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا، وهم
ـ خوف الفرنجة ـ ولدان ونسوان
تسعون عاماً بلاد الله تصرخ والـ
اسلام انصاره صم وعميان
فالآن لبّى (صلاح الدين) دعوتهم
بأسر من هو للمعوان معوان
للناصر ادخرت هذي الفتوح، وما
سمت لها هم الأملاك مُذ كانوا
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد
تنزّلت فيه آيات وقرآن
اذا طوى الله ديوان العباد فما
يطوى لأجر صلاح الدين ديوان[٣٣]

● وقال ابن جبير الرحالة الاندلسي مخاطباً صلاح الدين ومشيراً الى تحرير بيت المقدس:

وغبّرت آثارهم كلها
فليس لها الدهر من جابر
وأمضيت جدك في غزوهم
فتماً لجدهم العاثر
فكلهم غرق هالك
بتيار عسكرك الزاخر

الى ان يقول:

فنحت المقدس من ارضه
فعادت الى وضعها الطاهر
وأعليت فيه منار الهدى
وأحييت من رسمه الدائر
لكم ذُخَر الله هذا الفتوح
من الزمن الأول الغابر
خصّك من بعد فاروقه
بها لا لاصطناعك في الآخر
محبتك ألقيت في النفوس
بذكر لكم في الورى طائر

ـ والقصيدة واضحة المعنى، سهلة العبارة، تحمل كثيراً من التفاؤل، فبعد تحرير القدس، أمّل الناس استرداد جميع اجزاء الوطن المغتصب[٣٤] من براثن الغزاة الصليبيين، وهذا ما حدث فعلاً في مقبلات الأيام.

● ثم أتت الحملة الصليبية الثالثة نجدة للفرنج الذين أزاحهم صلاح الدين عن البلاد، فلم تستطع هذه الحملة أن تغيّر شيئاً من موقف صلاح الدين، لأنها عجزت عن استرداد بيت المقدس من يده. وفي ذلك يقول الشاعر.

« الحكيم أبو الفضل الجلياني »: ـ

يا منقذ القدس من أيدي جبابرة
قد أقسموا بذراع الرب تدخله
ما كذبوا كذبهم في وصف ربهم
وصدق الوعد مأموناً محوله
أما رأيت ـ ابن أيوب ـ استقل بما
يعيي الزمان وأهليه تحمله
هاج الفرنج وقد حاروا لفتكته
واستنفروا كل مرهوب تغلغله
لما سمى القدس قالوا كيف نتركها
والربّ في حفرة منها تمثله
فكم مليك لهم شق البحار سرى
لينصروا القبر والاقدار تخذله

استعرضوا الأهل والعدوى تمزقهم
واستكثروا المال والهيجا تتفله
هم الفراش لهيب الحرب تصرعه
وكلما لجّ صدماً حلّ مقتله
سيف أمام فلسطين يرى أمما
خلف البحار لقد أمهاه صيقله
كم قد أعدواكم فلّ جمعهم
من غير ضرب ولا طعن يزيله
وانما اسم صلاح الدين يذكر في
جيش العدا فيسبيهم تخيله[٣٥]

● هكذا اشترك العالم العربي والاسلامي كله في تهنئة القائد المنتصر صلاح الدين الأيوبي بيوم تحرير القدس. والواقع ان الشعراء مهما جوّدوا وان الكتاب والخطباء مهما أبدعوا، فان الفضل كل الفضل في تجويدهم لسيف هذا الرجل[٣٦] الداهية، ولبطولته الجند الشامي الذين حاربوا معه باخلاص. لقد امتازت القصائد (القدسيات) بالحماسة المتدفقة وبحرارة العاطفة التي تدل على ما كان يعتمل في نفوس الشعراء يومئذ، من اضطرام نيران الالم، لاغتصاب القدس العربية، ولما أصاب اهلها من ويلات وتشريد، وذبح وتقتيل. لقد تلونت هذه القصائد الواناً شتى، بين حزن وحسرة، بين فرح وبهجة، وبين تمجيد للبطل المنقذ الناصر صلاح الدين، وحث على النزال، الى غير ذلك من الوان العواطف والخلجات التي ألمت بالامة ابان الحروب الصليبية[٣٧] ● وبعد... لقد لاحظنا ان الشعر الذي تناول الصراع بين المسلمين والصليبيين، وخاصة (القدسيات) منه، اقتصر على الحماسة، وتمجيد البطولة، وتسجيل بعض الحوادث التي جرت اثناء الصراع، واظهارالسرور والابتهاج باخبار الانتصارات، وتقديم التهاني للبطل صلاح الدين، وحثه على مواصلة الجهاد واستئصال شأفة الخطر الصليبي من قلب العالم الاسلامي[٣٨] وفي الحقيقة فان الشعراء الذين عاصروا هذه الأحداث، والذين أرخوا لتطوراتها وتغيراتها ومعاركها، التزموا مبدأ التذكير بالقدس وتحريرها، والحديث عن مقدساتها وضرورة تطهيرها. بل ان هؤلاء الشعراء لم يتركوا المناسبات الخاصة والشخصية، دون ان تكون مقاماً لحديثهم عن تحرير القدس وتطهيرها من دنس الصليبيين، وعندما ذهب الشاعر العماد الكاتب، الى صلاح الدين ليعزيه في وفاة عمه، لم ينس الشاعر في سياق هذا العزاء ان يعيد التذكير بالقدس داعياً الى عدم اهمالها وتجهيز العدة لتحريرها من جديد، فيقول:

نصبوا على الافرنج سوط عذابها
بأن تقسموا ما بينها القتل والاسرا
ولا تهملوا البيت المقدس، واعزموا
على فتحه غازين، وافترعوا البكرا

وعندما يهنئه بتحرير (غزة) يذكره بالقدس، فتحريرها فتح لباب تحرير الشام كله من يد الغاصبين فيقول:

وهيجت للبيت المقدس لوعة
يطول بها منه اليك التشوّق
هو البيت ان تفتحه، والله فاعمل
فما بعده باب من الشام مغلق

● واذن، كانت القدس هي القضية التي اجمعت من حولها أهداف الكلمة كما اجمعت من حولها الامارات والولايات وكل المذاهب والفرق والاتجاهات... وأصبح تحرير القدس - هو طريق الوحدة العربية[٣٩] ولقد كان طبيعياً ومنسجماً مع حركة التاريخ وارادة الحياة ان ينتصر صلاح الدين في هذا الصراع، لانه فرق بين الذين جاءوا من مختلف البلاد الاوربية بشريعة المجازر وقانون الدمار وقيم السلب والنهب ليقيموا بواسطتها ملكاً على أنقاض الشريعة الاسلامية وقيمها والمؤمنين بها، وبين الذين أثارتهم هذه البشاعات فهبوا يعيدون الحق الى نصابه ويمحون عن الانسان المتحضر تلك الوصمة التي لطخ بها الصليبيون هذه الصفحة من صفحات التاريخ[٤٠]

ومثلما كتبت الهزيمة على الصليبيين الغزاة، سيهزم الصهيونيين البغاة، وتتحرر القدس من دنسهم، لأن للباطل جولة، وفي النهاية: «لا يصح الا الصحيح»...

• « المصادر والهوامش » •

(١) د. أحمد احمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ط ١ ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠ مطبعة نهضة مصر.
وانظر: د. عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية ص ١٠٥ دار الفكر العربي ـ القاهرة / ١٩٤٨.
(٢) محمد عمارة: معارك العرب ضد الغزاة ـ مقالة (تحرير القدس) ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت / ١٩٧٢.
(٣) د. احمد بدوي: نفس المصدر ص ١١ ـ ١٢.
(٤) المراجم: جمع مرجمة، وهي الدبوس من الكلام.
(٥) المذاكي: الخيل التي تم سنها (لسان العرب ١٤ / ٢٨٨.)
(٦) القشاعم: جمع قشعم وهو المسن من الثيران. لسان العرب ١٢ / ٢٨٤.
(٧) محمد عمارة: معارك العرب ضد الغزاة ص ٢٩ ـ ٣٠
(٨) نفس المصدر ص ٣٢.
(٩) نفس المصدر ص ٣٠.
(١٠) نفس المصدر ص ٣٣.
(١١) نفس المصدر ص ٣٤.
(١٢) نفس المصدر ص ٣٥. (١٣) د. احمد بدوي: نفس المصدر ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠.
(١٤) محمد عمارة: نفس المصدر ص ٥٤.
(١٥) ابن الاثير: الكامل ١١ / ٥٥٩ بيروت / ١٩٦٦ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ٢ / ٢١٤ تحقيق جمال الدين الشيال ـ القاهرة / ١٩٥٧.
(١٦) محمد عمارة: المصدر نفسه ص ٥٥
(١٧) د. أحمد بدوي: نفس المصدر ٤٦٢
(١٨) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ٢ / ١٠١ القاهرة ١٢٨٧ ـ ١٢٨٨ هـ.
(١٩) مفرج الكروب ص ٢٠٠ والروضتين ٢ / ١٠٥.
(٢٠) د. عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية ص ١٣٢ الطبعة الأولى ـ دار الفكر العربي. القاهرة / ١٩٤٨.
(٢١) د. أحمد بدوي: نفس المصدر ص ١٠٦.
(٢٢) بهر بهاراً: غلب ضوءه ضوء الكواكب.
(٢٣) الروضتين ٢ / ١١٩.
(٢٤) الروضتين ٢ / ١٠٤.
(٢٥) يبدو أن لون راية صلاح الدين كان اللون الأصفر. وصف سعاد بن عبد الله راية صلاح الدين بقوله:

ورايـة مـا هـنـت يـومـاً ذوائـبـهـا
الا هـل قـذ هـطـال مـن الـذبـل
صـفـراء، عـالـيـة بـالـنـصـر، حـائـزة
بـالـحـول مـالم يحـزه الـقـبر بـالحـيـل
مـنـشـورة لـيس يـطوى عـزم صـاحـبـهـا
حـتى يـنـال مـكـانـاً لـم يـنـل

- ووصف شهاب الدين الشاغوري هو الآخر راية صلاح الدين بقوله:

رايـاتـه صـفـر تـسـود وتـنـشـي
حـمـراً تـلـج نـجـيـع آل الأصـفـر

- وقال ابو الفضل الجلباني في تلك الراية:

أرى الـرايـة الـصـفـراء يـرمـى اصـطـفـانـهـا
بـنـي أصـفـر بـالـراعـفـات الـلـهـازم

- يراجع كتاب الروضتين ٢ / ١١٩ و ١١٦
(٢٦) الروضتين ٢ / ١١٨
(٢٧) الروضتين ٢ / ١٠٦
(٢٨) الاسبتار: كان واجبهم اسعاف المرضى وبعد ... الصليبيين على القدس تحولوا الى هيئة من الفرسان المحاربين.
(٢٩) الداوية: كان واجبهم ارشاد الحجاج النصاري وحمايتهم، وكانوا مقاتلين وقس وخلال الحروب الصليبية كانوا يلومون بالنقليات.
(٣٠) وقعة التل: المقصود بها معركة حطين (تل حطين).
(٣١) ضحى السبت: هو اليوم التالي لليوم الذي انتصر فيه صلاح الدين في موقعة حطين.
(٣٢) الروضتين: ٢ / ١١٦.
(٣٣) الروضتين ٢ / ١٠٤ وانظر: د. أحمد احمد بدوي: صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه ص ١٠١ ـ ١٠٣ القاهرة / ١٩٦٠.
(٣٤) د. أحمد بدوي: المصدر السابق ص ١٠٨ ـ ١٠٩.
(٣٥) الروضتين ٢ /١٥١.
(٣٦) د. عبد اللطيف حمزة / أدب الحروب الصليبية ص ١٤٤
(٣٧) د. د. احمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ـ الطبعة الاولى ـ مطبعة نهضة مصر.
(٣٨) عبد الكريم توفيق العبود: الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ص ١٤٩ (بتصرف) الناشر / وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد / ١٩٧٦.
(٣٩) معارك العرب ضد الغزاة ص ٤٧ ـ ٤٨.
(٤٠) نفس المصدر ص ٥٩

• • •